كتب جديدة

الاشتراكية والأدب

بقلم الدكتور لويس عوض . دار الاداب ، بيروت ، ١٩٦٣

في جميع البلدان التي يسودها الاضطراب الحضاري ، تنمو وتترعرع دعوات الحياد الفكري والسياسي ، كمحاولة للتعرف على الذات المفقودة وسط التيارات العالمية المتزاحمة على كوكبنا . ولم تنج المنطقة العربية من مرحلة الاضطرابات هذه ، بل ربما عانت ويلاتها اكثر من اي جزء آخر في عالمنا . ذلك ان العلاقة بيننا وبين اوربا لم تكن يوما علاقة الند للند ، اذا استثنينا بالطبع تلك المرحلة التي كانت فيها الامة العربية في مستوى العطاء العظيم فانقذت اوربا والعالم من وهاد القرون الوسطى . على ان تلك المرحلة لا تقاس بالتاريخ الانساني في مداه البعيد ، حيث لم نقف يوماً جنباً الى جنب اوربا دون زيادة او نقصان .

ولقد نشأ من ذلك الكثير من العقد ومركبات النقص التي لا تتبلور فينا عادة كافراد ، وانما كمجتمع وحضارة . ومن صميم هذه العقد ما يتوهمه بعضنا من « شمولية » اذا جمع بين النقائض والمفارقات ، معتقداً انه بذلك يجمع بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين اليسار واليمين ، وبين السماء والارض على صعيد واحد ، هو صعيد الكمال التام والرسالة الانسانية العليا . والحق ان هذه المحاولة ليست شيئاً جديداً على اي من مجالات الفكر والحياة ، اذ هي لا تعدو كونها مجرد « حلول وسطية » يلجأ اليها الانسان الشديد الحيرة والاضطراب اذا حسنت نيته ، كما يلجأ اليها الانسان بوازع من موقف انتهازي اذا ساءت هذه النية او ضعفت .

وليست من مهمتنا ان نبحث عن النيات ، ونحن بصدد كتاب « الاشتراكية والادب » ، لان مؤلفه اولا ، كاتب عودنا على الروح الموضوعية في البحث ، ولانه ، ثانيا ، احد اولئك الرواد الذين علمونا الشيء الكثير في الاشتراكية وفي الادب وفيهما معاً . لهذا يحسن بالناقد ان يقف عند تسجيل الظاهرة الواحدة او الظواهر العديدة دون ان يقول كلمته الاخيرة في تقييمها الا بعد ان يستقبل انعكاسات الموقف الجديد للدكتور عوض على تطبيقاته النقدية اللاحقة لكتابه « الاشتراكية والادب » .

ولا شك انه يوجد بين مرحلتي التسجيل والتقييم مرحلة وسطى هي التحليل ، وغاية ما يمكن ان نقوله في هذه النقطة هو اننا سنقتصر في محاولتنا استخلاص النتائج على واقع الكتاب من جهة ، والتاريخ الادبي من جهة اخرى ، والموقف الراهن للفكر العربي من جهة ثالثة .

يضع الدكتور لويس عوض تاريخ الفكر الانساني في خانتين محدودتين هما المثالية والمادية ، ثم يؤرخ لكافة المذاهب السابقة للاشتراكية كنتاج طبيعي لمناهج الفكر المادي . وهو لا يقول ذلك بشكل مباشر كما كان يقوله في الماضي بين صفحات مقدماته لكتبه ، وانما هو يسلك الآن طريقاً غير مباشر في تصنيف الفكر العالمي : فالمدارس العقلية والوجودية وغيرها من اتجاهات

الفكر البرجوازي هي معادية بطبيعتها للفكرة الاشتراكية ، ومع ذلك فهو لا يعلن صراحة ان هذه الفكرة ابنة المنهج المادي في المعرفة ، لانه يعلم ان الكثير من اتجاهات الاشتراكية السابقة للماركسية قد نبتت في احضان الفلسفات المثالية . كذلك فهو لا يعلن صراحة ان البرجوازية هي الام الشرعية للفكر المثالي، لانه يعلم ان البرجوازية قد تبنت على طول تاريخها الكثير من الفلسفات المادية .

الا ان هذا التقسيم الذي يجيء به المؤلف لا يختلف كثيراً عن تقسيماته السابقة في مقدماته القديمة . وهو يدعو الموقف الجديد « بالاشتراكية الانسانية» التي تعترف بجميع المتناقضات وتتجاوزها الى ما هو اعمق ، الى انسانية الانسان ، هذه الانسانية التي لا علاقة لها بالصراع الطبقي او الطائفي او العنصري او اي صراع آخر لانها الجوهر الكامن في وحدة السماء والارض في كل واحد منسجم .

لست اشك لحظة في ان تاريخ الفكر الاشتراكي هو بنفسه تاريخ الفكرة « الانسانية » ، بمعنى انه لم يوجد مفكر اشتراكي قط لم يزعم ان اشتراكيته تهدف الى ان يسترد الانسان انسانيته . وبينما يتفق جميع الاشتراكيين في هذا الهدف ، يختلفون من حيث الوسائل القادرة على تحقيقه ، بل هم يختلفون ايضاً في تفسيره . فقوم يقولون بزوال الطبقات كطريق يؤدي الى انسانية الانسان ، وقوم يقولون بحضارة واحدة تستظل بها الانسانية فتحافظ على جوهرها الروحي الاعلى ، وقوم يعودون بنا الى الغابة او الطبيعة لنسترد نقاءنا الاول ، ويتم ذلك اما في مجتمع شيوعي ، او في جمعيات تعاونية ، او في مدينة فاضلة ، او سواها. اي اننا لم نعرف قط دعوة اشتراكية لم تدع انها تستهدف انسانية الانسان ، ومن هنا لا يكون المؤلف قد اتى بجديد من ناحية الهدف ، ولا يكون قد اتى شيئاً على الاطلاق من ناحية الوسيلة .

والحلول الوسطية في مجال المعرفة ، اما انها تلغي الفكرتين وتنكرهما معاً ، واما انها تجمع بينهما في وقت واحد (والفريق الاخير يزعم انه يجمع بين الجوانب الايجابية في الفكرتين) . وينتمي المؤلف الى هذا الفريق الاخير ، فهو كباحث في الادب لا يرفض المدارس المثالية ولا ينكر المدارس المادية ، وانما يصوغ من هذه وتلك ما يتوهم انه مدرسة جديدة تطل من علیائها على البشر اجمعين في الشرق والغرب لتوحد بين قلوبهم في بوتقة الانسانية الخالصة من ادران المثالية والمادية على السواء .

ان وهم الباحث بان هذا الاتجاه الجامع المانع ـ مهما انكر ذلك مراراً ـ هو المدرسة الادبية النقية من شوائب الاقدمين والمحدثين ، اليسار واليمين ، ووهمه الآخر بان تجربة اجتماعية في بلد ما يمكن ان تقود الانسانية جمعاء، هو رد فعل طبيعي لموقفنا الحضاري المضطرب في هذه المنطقة من ناحية ، ولانعدام اصالتنا النظرية من الافكار الكبرى القائدة في عصرنا من ناحية اخرى، ولغياب التكافوء العادل بين الغرب وبيننا في التاريخ القريب المشترك من ناحية ثالثة .

النقاء الحقيقي والريادة الحقيقية كما اعرفهما هما الاجابة على هذا السؤال : لماذا نصر على ذلك التصنيف المتعسف للفكر : اليسار واليمين ، المادية والمثالية ، الخ ، ونجعل منه نقطة الانطلاق في محاولتنا الدؤوبة المثابرة للبحث عن الذات ؟ بل اذا كان هذا التصنيف صحيحاً ، ولم نر فيه ما يعبر عن خصائص ذاتنا الفكرية ، لماذا نلجأ الى الحلول الوسطية سواء بالاعتراف او بالانكار ؟ لماذا لا نبحث عن شيء جديد لا هو باليسار ولا باليمين ولا هو بالمادي او المثالي ؟ اجل ، ينبغي ان نستفيد من التراث ، ولكن لا ينبغي ايضاً ان نتحول الافادة الى مغامرات في التسلق ، فنستريح الى « حاصل الجمع » بين الجوانب الايجابية ، او نطمئن الى رفض كل شيء ! كلا الموقفين حل وسطي خاطيء تماما . والخطأ هنا ليس الطرف

المقابل للصواب، فهذا البتر الحاسم هو نتاج التصنيف المتعسف لكل شيء الى قسمين . اذاً فالحل الوسطي خاطىء بمعنى انه حل تسلقي ينشد الراحة والطمأنينة والاطلالة من اعلى ، بينما كنت اتوقع من لويس عوض ان يرود لنا مجاهل الطريق بعيدا عن التصنيف التقليدي البسيط الساذج للانسان . فالانسان قد اصبح في غاية التعقيد على ضوء العلوم الحديثة التي لم نعد ازائها نستطيع ان نقسمه الى خير وشر .

واذا كانت هذه هي ملاحظاتي على الجانب الفكري من المنهج الذي آثره الدكتور عوض في كتابه ، فانه تبقى لي ملاحظة سريعة حول الجانب التعبيري لهذا المنهج . ففي نقده للاتجاهات المادية والمثالية في الادب لاحظت انه يتكىء على بعض التعريفات المعجمية السريعة ، او على بعض الاقوال المتفرقة لزعماء تلك الاتجاهات . وفي رأيي ان كتاباً صغيراً ككتاب « الاشتراكية والادب » لا يحتمل مطلقاً هذه المختارات ، وكان افضل ان يكتفي الباحث بتصوير الهيكل النظري للمدرسة التي ينقدها ، فيقول مثلا ان الماركسية في الادب تؤمن بشيئين : اولهما الطبيعة الطبقية للادب ، بمعنى ان الفنون جميعها انعكاسات معنوية للطبقات المختلفة ، اذ لكل طبقة عند الماركسيين قيمتها وفنونها ومثلها ، ولهذا ليس هناك صراع طبقي بالمعنى الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي فحسب ، بل هناك صراع فكري بين الطبقات . ولذلك وجد الادب الاقطاعي والادب البرجوازي والادب الاشتراكي . وفي حدود هذه الزاوية كان الناقد يستطيع ان يناقش انسانية الادب في بعدها الطبقي ، فنحن لم ندرك قط من نظرة الدكتور للادب ما اذا كانت انسانية الادب تتعارض مع طبيعة الطبقية ، ام ان نظرته تشتمل عليها معاً .

والزاوية الاخرى في نظرة الماركسيين الى الفنون انها احد عناصر البناء الفوقي للمجتمع ، اذ هم يؤمنون بان الحضارة الانسانية في مجتمع ما تشتمل على قاعدة سفلية هي النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، كما تشتمل على قمة علوية هي مجموعة القوانين والنظريات والقيم في الاداب والفنون والقانون وغيرها ، وان هناك تفاعلا جدلياً بين القمة والقاعدة هو مفتاح التغير الحضاري في ذلك المجتمع . ومن هذه الزاوية كان الدكتور يستطيع ان يناقش مشكلة المشاكل ، اعني علاقة الفكر بالواقع ، فيبرز ما اذا كانت الواقعية الاشتراكية في ازمة ، وما هي ابعاد هذه الازمة ، وما صلتها بالنظام الاجتماعي القائم من ناحية - وبفلسفته من ناحية اخرى . ولكنني فوجئت بالدكتور عوض يقول انه لم يجد في تراث ماركس وانغلز ما يخص هذا الموضوع سوى متفرقات مبعثرة هنا وهناك ، واكتفى تبعاً لذلك بما قاله ماركس في « رسالة نقدية في الاقتصاد السياسي » ، بينما قد ترك لنا ماركس وانغلز معاً كتاباً ضخماً مشتركاً عنوانه « في الادب والفن ».

ولقد تسببت هذه الظاهرة في الجانب التعبيري من منهج كتاب « الاشتراكية والادب » ان ظلم المؤلف الكثير من الاتجاهات الادبية ، وانتهج اسلوب الاطلاق والتعميم ، وابتسر الكثير من المقدمات ، ليصل الى نتائج محددة مسبقة .

نادية لويس